سلافة حجاوي (*)

كشف الطبيعة الاستعمارية للاستيطان الصهيوني في فلسطين وتفنيد أساطيره المؤسسة

(*) الكتاب: المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية

(*) المؤلف: غابرييل بيتربيرغ، ترجمة: سلافة حجاوي

(*) إصدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار، ٢٠١٠

(*) عدد الصفحات: ٣٥٠ صفحة

يقدم هذا الكتاب تحليلا نقديا للصهيونية باعتبارها حركة استعمار استيطانية لفلسطين، على غرار عمليات الاستعمار الاستيطانية العديدة التي شهدها العالم على مدى القرون السابقة الأخيرة في أماكن مختلفة من العالم، وذلك على نحو مناقض للحكاية الرومانسية التي صاغها الصهيونيون والغرب بشكل عام، والتي تتحدث عن عودة شعب إلى الأرض التي وعده بها الرب منذ آلاف

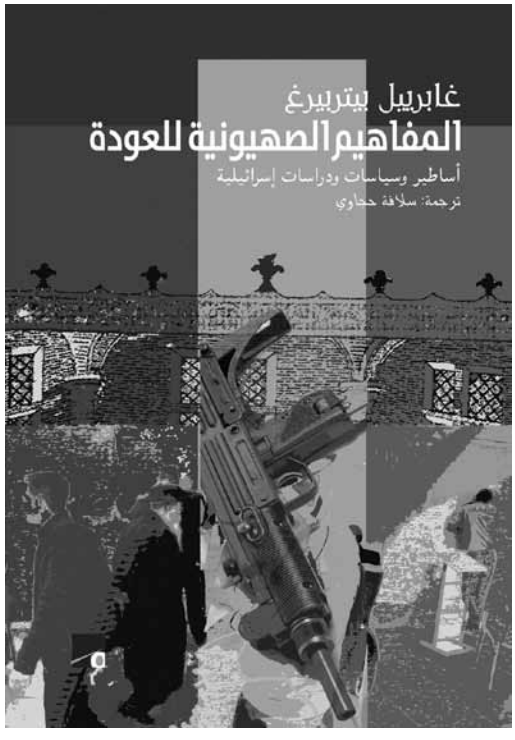

(*) كاتبة وباحثة فلسطينية- رام الله. هذه المقالة عبارة عن كلمة ألقتها خلال ندوة عن الكتاب عقدها مركز مدار في رام الله، بالتزامن مع صدور ترجمته العربية في شتاء ٢٠١٠.

السنين. وهو أحد الكتب القليلة المناهضة للصهيونية، التي كتبها كتاب يهود إسرائيليون.

يتميز هذا الكتاب بمنهجية راقية رغم تعقيدها، كما يستند في أطروحاته إلى كم كبير من الوثائق التي تترجم عن العبرية لأول مرة، وكم أكبر من البحوث والدراسات. ويتميز بأنه حقا وكما قال المؤلف في المقدمة، ليس كتابا أكاديميا تقليديا، حيث يتداخل فيه ما هو أسطوري وتاريخي وبحثي وأيديولوجي وأدبي، ويتفاعل فيه ما هو بناء فوقي مع ما هو بناء مادي فعلي، بما هو واقع فعلي، وذلك على نحو يسمح بوصف منهجيته بأنها أشبه بالفوضى المنهجية الخلاقة. وبفعل ذلك، فإن الكتاب صعب بحق، تتطلب قراءته صبرا وتعمقا وتأملا في كل جملة ومعلومة من معلوماته. غير أنه في الآن ذاته مفيد ومثر حتى بالنسبة للذين يتصورون أنهم قرأوا وعرفوا كل شيء عن الصهيونية، كما هو شيق وممتع وذلك بفضل ما يتضمنه من مقتطفات أدبية مشبعة بالمشاعر والخواطر عن المأساة الفلسطينية، التي تطل على القارئ في كل صفحة من صفحاته.

وينطبق ما سبق على خطة الكتاب. فإلى جانب المقدمة والشكر والإهداء، وهو إهداء متميز إلى فلسطيني متميز هو الراحل إدوارد سعيد، هناك سبعة فصول فيه، لكل فصل منها وظيفة محددة في السياق العام لموضوع الكتاب. وهذه الخطة تتصاعد نحو الذروة عبر الفصول الخمسة الأولى التي تحتوي على الخلفية اليهودية في أوروبا القرن التاسع عشر، ثم الطبيعة الاستعمارية للاستيطان الصهيوني في فلسطين، وصولا إلى الأيديولوجيا الصهيونية التي ترتب عليها تدعيم البناء المادي بما أسماه المؤلف بالأسطورة، والمؤلفة من ثلاثة مفاهيم هي: نفي المنفى، والعودة إلى الأرض، والعودة إلى التاريخ (أضاف إليها لاحقا مفهوم العودة إلى الكتاب المقدس ومفهوم العودة إلى صدر المسيحية بعد ظهور الحركات البروتستانتية) وصولا إلى نتاجات عدد من الباحثين المرموقين في معهد الدراسات اليهودية التابع للجامعة العبرية، الذين تكرسوا لنشر وتعميم الأسطورة، حيث تبدأ بعد ذلك عملية التفكيك لذلك البنيان على امتداد الفصلين السادس والسابع الأخيرين، وأهم جوانب تلك العملية هو الجانب المختص بنسف الكتاب المقدس على يد علماء الآثار الإسرائيليين الذين أثبتوا أنه في معظمه ملفق ومزور.

يبدأ الفصل الأول بسؤال التصدي للمشكلة اليهودية في وسط وغرب أوروبا، وذلك منذ انهيار توجه اليهود نحو الانصهار بعد نشر تفاصيل قضية الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس، الذي اتهم بإفشاء أسرار فرنسية لألمانيا في العام ١٨٩٤، والتي أدت إلى تفاقم أزمة اللاسامية المعادية لليهود وتراجع توجه اليهود نحو الانصهار. وقد أدى ذلك إلى انشطار عملية البحث عن حلول للمشكلة اليهودية لدى اليهود إلى فرعين، هما فرع الصهيونية الذي تزعمه هيرتسل، وفرع آخر اتجه بزعامة المثقف والأديب اليهودي الفرنسي برنارد لازار نحو صياغة بديل للانصهار من جهة وللصهيونية من جهة أخرى، هو بديل "المنبوذ الواعي". وكلمة المنبوذ هي الترجمة العربية لكلمة "باريا" التي هي صفة هندية في الأصل تطلق على الطبقة الأخيرة في المجتمع الهندي، وقد أطلقها الأوروبيون على اليهود خلال القرن التاسع عشر. والمنبوذ الواعي صيغة تم ابتكارها ضمن دائرة برنارد لازار كي تتضمن سمة الوعي بحالة النبذ التي يمارسها الأوروبيون ضد اليهود، وتقبل اليهود ذلك في سبيل البقاء في أوروبا والنضال والاندماج ضمن الحركة الثورية والاندماج فيها. وهدف المؤلف من عرض هذا التيار هو إثبات أنه كان وما زال هناك بديل للصهيونية في أوروبا، وهو بديل رافض للصهيونية، ورافض للانصهار أو الذوبان، ولكنه بديل تقدمي وقابل للتطبيق، وقابل للوجود حتى الآن.

يكرس المؤلف الفصل الثاني لدراسة الاستيطان الصهيوني في فلسطين باعتباره استيطانا يمتلك كل خصائص الاستيطان الاستعماري الذي جرى في عدة مناطق في العالم. فبعد متابعة عدد من الدراسات المقارنة في هذا المجال، يحدد نماذج من أنواع المؤسسات الصهيونية ثم المستوطنات التي تؤكد على الطبيعة الاستيطانية الاستعمارية الصهيونية في فلسطين. في مجال المؤسسات، يقارن بين الجامعة الأميركية في بيروت والجامعة العبرية في القدس، اللتين تم إنشاؤهما من قبل قوتين استعماريتين، غير أن الأولى أقيمت لتعليم أبناء البلد، بينما أقيمت الثانية كمستعمرة استيطانية خالصة بالمعنى البنيوي على الأقل، كما يقول.

وفي مجال المستوطنات، يتحدث عن الموشافا كأول نمط من أنماط المستوطنات الزراعية، التي كانت في بادئ الأمر مختلطة يعمل العمال الفلسطينيون واليهود فيها معا. ثم يتحدث عن الكيبوتس كمستعمرة استيطانية خالصة حيث لا تجد فيها أي عرب فلسطينيين، وكذلك في أي من المستوطنات التي انشئت في أية مرحلة من مراحل الاستيطان الاستعماري الصهيوني، ويقول بأنه في الوقت الذي كان يروج فيه أن الكيبوتس قد انبثق من عمليات تجريبية إشتراكية مدهشة ذات أيديولوجيا تقدمية، فهو في حقيقته تطبيق لمشروع استعماري

ألماني عنصري صممه المستعمرون الألمان في أواخر القرن التاسع عشر وطبقوه في المناطق الغربية المحتلة من بولندا بهدف تجريد البولنديين من أراضيهم، وقام اليهود الألمان، وفي مقدمتهم أرثور روبين، بتقليده في فلسطين. ثم يتناول مثال الهستدروت، فيقدم شرحا وتحليلا مسهبين عن كيفية تأسيسه وتجنيده على نحو يؤدي إلى إقصاء العمال العرب الفلسطينيين عن الانضمام إليه. ويستعرض نوايا ومؤامرات بن غوريون للحيلولة دون ضم العمال العرب إليه، كما يقدم وثيقة كتبها أحد أبرز أعمدة الحركة الصهيونية في العشرينيات، هو حاييم آرلوزوروف، التي يرفض فيها فكرة التنظيم المشترك للعمال العرب واليهود. ومع طرد العمال العرب من سوق العمل، يصف المؤلف تحول العمال اليهود إلى قوميين متعصبين يسعون إلى إقامة مجتمع يهودي متجانس "لا يكون فيه استغلال للفلسطينيين، ولا تكون فيه منافسة مع الفسطينيين، لأنه لن يكون هناك فلسطينيون".

ويخصص الفصل الثالث لعرض وتفنيد ما يسميه بالأسطورة التأسيسية للصهيونية بمبادئها الثلاثة: نفي المنفى والعودة للأرض والعودة للتاريخ. يقدم شرحا لمفهوم نفي المنفى باعتباره الأساس الذي يقوم عليه المفهومان التاليان. يتمثل هذا المفهوم في نفي الصهيونية نفيا قاطعا لكل ما وقع أو حدث بين الماضي القديم، الذي مارست فيه الأمة اليهودية السيادة على أرض إسرائيل، والحاضر الذي تتجدد فيه السيادة اليهودية على هذه الأرض عبر عملية العودة لاستيطانها. لا يوجد ما بين الحدثين سوى المنفى الذي لا يستحق إلا الاحتقار، لأن الما بين هو وضع شاذ. فاليهود قد عاشوا ويعيشون في المنفى حياة جزئية في انتظار الصعود. وطالما بقي هناك يهود في المنفى، فهم خارج الأرض وخارج التاريخ. يختلف مفهوم المنفى عند الصهيونيين عن مفهوم الشتات الذي تقبلوه وجندوه "بلا خجل لجمع التبرعات والمساعدات" كما يقول المؤلف. كان بن غوريون هو الذي صب كل اهتمامه على هذه المبادئ وجند كل الطاقات من أجل جعلها بدهيات ومسلمات لكل يهودي ومن أجل بناء صرح الدولة على جميع المستويات الفكرية والأيديولوجية والسياسية. وله في هذا المجال قول شهير يقول فيه بأنه لو اضطر للاختيار بين إنقاذ كل الأطفال اليهود في ألمانيا بشرط أن يذهبوا إلى إنكلترا، وبين إنقاذ نصفهم لكي يذهبوا إلى فلسطين، لكان اختارالثاني. ثم ينتقل المؤلف لاستعراض آراء ودراسات ومقالات عدد من كبار الذين كتبوا ضد أو مع مقولة نفي المنفى، ومنها مقالة لأنيتا شابيرا، الملقبة بأميرة الصهيونية، نشرتها في العام ٢٠٠٣ في محاولة للظهور بمظهر الباحثة الليبرالية، حيث طالبت فيها بالتوقف عن المناداة بنفي المنفى وأنه لم يعد لها لزوم. كما يستعرض دراسة مهمة للباحث أمنون راز كركوتسكين الذي يدعو إلى الاعتراف بالطبيعة القومية الثنائية لتاريخ البلد وجغرافيته.

أما بالنسبة لمفهوم العودة للأرض، فالأرض، أي أرض فلسطين، هي أرض فارغة وفقا للمفهوم الصهيوني، وذلك لأن الأرض منفية، كما الشعب، تنتظر خلاصها بعودة اليهود إليها.

أما المفهوم الثالث، وهو العودة للتاريخ، فهو يتشابك مع المفهومين السابقين وذلك من حيث أن اليهود لا تاريخ لهم في المنفى، بل يظلون خارج التاريخ، كما أن الأرض لا تاريخ لها لأن أصحابها ليسوا فيها، وذلك لأن الأرض لا تدخل التاريخ إلا حين تعود الأمة إليها وتؤسس سيادتها السياسية عليها.

يفند المؤلف هذه المفاهيم ويعتبرها جزءا من المفاهيم الاستعمارية الاستيطانية وفق المفاهيم التي وضعها عالم الآثار الأميركي الشهير أولبرايت وقادة حركة الاستعمار الاستيطاني في الولايات المتحدة وجنوب افريقيا وأستراليا وغيرها. كما يستعرض في السياق الحركة الكنعانية المناهضة للصهيونية، التي ظهرت بين عدد من المثقفين اليهود في ثلاثينيات القرن الماضي، والتي كانت ضد الصهيونية واليهودية ومع إعادة الاعتبار "لأمة عبرية تضم كل السكان". ويختم الفصل بعرض لعمل الباحث باينين الذي يتضمن ضرورة التصدي للأسطورة الصهيونية الإسرائيلية المهيمنة بإعادة التركيب التاريخي من خلال توفير حكايات تاريخية بديلة.

ويخصص المؤلف الفصلين الرابع والخامس لمعهد الدراسات اليهودية الذي تأسس في العام ١٩٢٤ كمعهد تابع للجامعة العبرية على جبل سكوبوس، ولدراسات وبحوث الباحثين البارزين فيه، الذين ساهمت دراساتهم وبحوثهم في نشر وتعزيز الأسطورة التأسيسية الصهيونية. فهذه الأعمال، كما يقول، هي التي أعطت الأسطورة شكلها وقوامها السائد حتى الآن. كما أن كتب التاريخ التي تدرس في المدارس والجامعات قد خرجت من هذا المعهد وأصبح أحد الباحثين البارزين في هذا المجال وزير تربية في أول حكومة إسرائيلية. ويركز في الفصل الخامس على أبرز الباحثين في المعهد وهو غيرهارد شوليم، الذي حارب المنفى بعنف وكرس معظم أعماله لمبدأ العودة للتاريخ، فكانت أبحاثه مخصصة للحركات الصوفية اليهودية، وفي مقدمتها الشبتائية ثم الكبالاه والفرانكية والدونمة والمورانية التي يعتبرها المؤلف بدعا بينما يعتبرها شوليم جزءا من التاريخ القومي

اليهودي. يتوسع المؤلف في متابعته لأطروحات شوليم، وبخاصة بالنسبة للشبتائية، فيعرض الزيف والتزوير الذي يتقبله شوليم بتفسير ارتداد المسيح شبتاي تسفي واعتناقه الإسلام بأنه يندرج ضمن مبدأ مقبول هو مبدأ "الخلاص عبر الخطيئة".

ثم ينتقل المؤلف بنا في الفصل السادس إلى أحد أهم الموضوعات في الكتاب وهو موضوع العودة إلى الكتاب المقدس ودور بن غوريون الرئيس في هذا المجال. لم يكن بن غوريون متدينا أو له علاقة بالكتاب المقدس، كما يقول المؤلف، غير أنه بصفته حيوانا سياسيا، فإن فكرة الاستفادة منه في الربط بين الأمة والوطن قد أخذت تختمر في رأسة منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وكانت البداية هي المقابلة التي أجرتها معه لجنة بيل في العام ١٩٣٧، حيث قال تلقائيا ردا على أحد أسئلة اللجنة: "الانتداب البريطاني غير موجود في كتابنا، غير أن كتابنا هو انتدابنا لهذه الأرض". ويقول المؤلف أن اكتمال اعتناق بن غوريون للكتاب المقدس قد تم مع نهاية حرب ١٩٤٨. فقد أصبح سفر يهوشع بما يتضمنه من وصف لفتح البلاد بسرعة فائقة بقيادة يهوشع على رأس جيش جرار موحد من الغزاة الإسرائيليين، والذي جاء فيه: "هكذا تمت إزاحة جميع الشعوب الكنعانية والاستيلاء على كل ممتلكاتها، كما تم توزيع الأراضي على مختلف القبائل والاستيطان فيها"، هو التبرير لدى بن غوريون لما حدث في العام ١٩٤٧-١٩٤٨ من تنظيف للأرض وتطهير عرقي أفرغ الجغرافية المقدسة من سكانها الأصليين، وزرع مساحات شاسعة بغابات الصنوبر لكي تبدو فلسطين أوروبية الطابع، فيخنق الصنوبر المزروعات السابقة إلى غير رجعة.

مقابل بن غوريون وممارساته الصهيونية، يقدم المؤلف في هذا الفصل، عرضا لقصص وروايات الأديب يزهار سميلانسكي المعروف أدبيا بإسم س. يزهار. ويعتبر المؤلف يزهار أعظم كاتب عبري بين الذين ولدوا في فلسطين والذين كانت لغتهم الأولى هي العبرية وعلى نحو متميز عن أولئك الذين هاجروا من أوروبا مثل بياليك وآخرين. نشأ يزهار بين العرب وكان يعمل مع العرب في المستوطنات الأولى المعروفة باسم الموشافا حيث لم يكن العمل قد أصبح عبريا خالصا، فأحبهم وأحبوه، كما يقول المؤلف، وبعد ما حدث من تطهير عرقي في العام ١٩٤٨، كرس كتاباته الأدبية لرثاء فلسطين التي اختفت والفلسطينيين الذين اختفوا، وكانت روايته "خربة خزعة" ذروة التعبير عن هذه المأساة، وأصبح يؤمن بأن فلسطين ليست فقط وطنا، وإنما هي وطن ثنائي القومية بتاريخه وجغرافيته. وقد تم بعد ذلك تطويقه واستيعابه من قبل المؤسسة الصهيونية للحيلولة دون استمراره في الكتابة على هذا النحو.

ثم يقدم المؤلف شخصية أخرى، هو ميرون بنفينستي وكتابه "المشهد المقدس" (صدرت ترجمة عربية له عن مركز مدار). كان والد ميرون رسام خرائط، وعاش ميرون تجربة تكاد تشبه تجربة يزهار حيث أن والده كان يصحبه معه في رحلاته في أرجاء فلسطين، فرسخت في ذاكرته مشاهدها، وحين كبر وصار يلتقي الفسطينيين الذين كانوا قد طردوا العام ١٩٤٨، بات يقول: "فجأة رأيت جغرافية طفولتي أمام عيني". يسمي المؤلف هذا النمط من الكتابة بأنه نمط يزهاري. يلقي بنفينستي الضوء على المصير المرعب الذي حل بالأرض بعد انتصار المستوطنين، ويروي حكاية تغيير أسماء كل فلسطين، حيث جمع بن غوريون بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ عددا من رسامي الخرائط وعلماء آثار ومؤرخين وشكل منهم لجنة مهمتها تغيير جميع أسماء الأماكن إلى أسماء عبرية. كما تم نفس الشيء بعد حرب العام ١٩٦٧. يقدم بنفينستي تقريرا عن الطريقة التي تمت فيها العبرنة. فقد اختيرت الأسماء العبرية بهدف التضليل المتعمد وبدهاء إضفاء سمة القدم التوراتية على أماكن ليست لها صلة جغرافية أو تاريخية بالأسماء التي سميت بها.

مقابل شخصيتي يزهار وبنفينستي يقدم المؤلف شخصيتين اندمجتا في الأسطورة التأسيسية الصهيونية هما المؤرخ بيني موريس الذي انقلب من موثق لعملية التطهير العرقي ضد الفلسطينيين في العام ١٩٤٨ إلى مطالب باستكمال عملية التطهير العرقي ضد الفلسطينيين، ثم عاموس عوز الذي يصنف بأنه المتحدث باسم اليسار ودعاة السلام، فيفضح المؤلف تصرفاته ومواقفه في عدة مناسبات منها الدور الذي لعبه في تزوير نتاج استطلاع لآراء الجنود الإسرائيليين في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ صدر في أوائل السبعينيات من القرن الماضي بعنوان "كلام الجنود".

ويخصص المؤلف فصله الأخير لما يمكن تسميته بالتداعيات أو الانهيارات، في مقدمتها التطرق للتحولات التي شهدتها المسيحية مع ظهور الحركات البروتستانتية، التي نادت بالتفسير الحرفي للتوراة في شأن عودة اليهود بدلا من التأويل المجازي الوسيطي السابق لذلك، وما يترتب على ذلك من عودة اليهود إلى حضن المسيحية، وذلك في سياق الانطلاقة المسيحية البروتستانتية نحو عصر الاستعمار الإمبريالي. ويستعرض في هذا السياق عددا من الدراسات التي تركز

على مدى تأثر اليهودية بالمسيحية البروتستانتية والبعد الاستعماري الإمبريالي للبروتستانتية وتركيز بريطانيا على فلسطين للدفاع عن مصالحها في إطار المسألة العثمانية، ثم مقالة فيريتيه الذي يخلص فيها إلى القول بأن العودة للتاريخ قد كانت بالنسبة للصهيونية حافزا قوميا- استيطانيا الهدف منه تحقيق الاندماج الكلي بالقصة الأوروبية من خلال اقتطاع وطن قومي في الشرق. وهذا يعني أن الصهيونية قد اندمجت على المستوى الكلي في الانطلاقة المسيحية البروتستانتية الاستعمارية الإمبريالية التي احتضنت اليهود، وعلى المستوى الجزئي بتبني أسلوب الاستعمار الاستيطاني الحصري، الموجه نحو إقصاء السكان الأصليين أو إبادتهم.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموضوع الأهم وهو القنبلة التي فجرها الخبراء الآثاريون الإسرائيليون. فبعد كل تلك الفورة البن غوريونية الخاصة بالعودة إلى الكتاب المقدس، وتعزيز الأسطورة التأسيسية على قاعدة الكتاب المقدس، يتم الإعلان النهائي عن النتائج التي توصل لها الآثاريون الإسرائيليون الذين جهدوا في التنقيب في مناطق الجليل والنقب، ثم بعد حرب حزيران ١٩٦٧ في كل مناطق الضفة الغربية، ويخرج عميدهم، عالم الآثار المرموق هيرتسوغ في العام ١٩٩٩ بمقالة تفجيرية يقول فيها لبن غوريون وللإسرائيليين والعالم: "هذا هو الذي تعلمه الآثاريون من حفرياتهم في أرض إسرائيل: لم يكن الإسرائيليون في مصر أبدا، ولم يتيهوا في الصحراء، ولم يفتحوا الأرض في حملة عسكرية، ولم يوزعوها على القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة، ولم تكن مملكة داوود وسليمان المتحدة التي يصفها الكتاب المقدس بالقوة الإقليمية في أفضل أحوالها سوى مملكة قبلية صغيرة، وسوف يكون بمثابة صدمة غير مريحة للكثيرين حين يعلمون أن رب إسرائيل يهوه، كانت له عشيقة، وأن. . . وأن. . . إلخ. وكما قال فنكلشتاين، وهو أحد كبار علماء الآثار التقدميين، فإن كل الجهود التي بذلت في المناطق المحتلة العام ١٩٦٧، والتي هي قلب القصة الكتابية، "قد تمخضت ويا للسخرية، عن دحض تلك القصة بدلا من إثباتها".

وكان دحض علماء الآثار لما جاء في سفر يهوشع المحبب لبن غوريون ذروة هذه النتائج التي أكدت بأن يهوشع شخصية وهمية ليس لها وجود وأنها قد رسمت على شكل صورة مجازية للملك جوسيا في القرن السادس ق. م لتبرير سياساته. كما أن الأوصاف الخاصة بالغزو والقتل وعظمة الجيوش الجرارة التي حفل بها سفر يهوشع، والتي أراد بن غوريون منها تبرير ما فعل بالفلسطينيين العام ١٩٤٨، لم تكن غير تقليد وصفي للفتوحات الأشورية. كما أكدوا في الآن ذاته أن البلاد لم تشهد في ذلك الحين أية عملية غزو عبرية على هذا النحو.